

قصة حادثة للكاتب نجيب محفوظ كان يتكلّم في تليفون الدُّكَان بصوت مُرتفع، يُسمَع صوْتُه رغم ضوضاء شارع الجيش الصاخب، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكَان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، ثم ختم حديثه بقوله: "إنتظري سأحضر فوراً". كان في الستين أو نحوها، طویل القامة نحيلها وروي الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبقِ فوق مرآتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، وقد أفسح مظهره عن إهمال صريح نتيجة للسن أو نسيان للذات، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. وبدا أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يُمْنَة بمحاذاة صف من اللوريات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذًا إلى الشارع، مرق من المنفذ ليعبر الشارع إلى ضفته الأخرى، وما كاد يجاوز مقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ولكنه لسبب ما لعله المفاجئة أو سوء التقدير وثبت إلى الأمام وهو يهتف "يا ساتر يارب" وجرت الحوادث متلاحقة. ندَّت عن الرجل صرخة كالعواء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، وفوق إفريز محطة الترام صدر عن فرملة الفور صوت محشِّر متشنج ممزق وهي تزحف على الأرض بعجلات متوقفة جامدة وهرع نحو الضاحية في ثوان عشرات وعشرات كأسراب الحمام، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، ولم ينبع جسم الرجل بحركة واحدة، وكان منكفاً على وجهه ولا يجرؤ أحد على لمسه وإحدى رجليه ممدودة إلى آخرها والأخرى منثنية منحسرة البنطلون عن ساق نحيلة غزيرة الشعر، وقد فقدت حذائهما، وكأن الأمر لا يعنيه البتة. الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيء، أندفع هو من أمام اللوري فجأة، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهها مستجيماً عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لعلها إصابة بسيطة " عند فمه انظر. كل ساعة حادثة من هذا النوع وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الادمي، نفذ منها وهو يصبح في الناس أن يبتعدوا خطوات. خطوات فقط وعينهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" فأجابه الشرطي بلهجة رادعة " أقل لمسة قد تقتلني، وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق اليه" واعترض الحادث جانب الطريق واضطربت السيارات إلى الإلتفاف حول السور البشري مشاركة الترام في مشاهة. فضاق بها حتى تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف ممتدة ومتداخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركبابها تطلعت أعين إلى الضاحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوذنية فاتسعت الحلة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملكي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفريق المتجمعين، وتفحص الرجل بنظرة شاملة وسأل الشرطي: "ألم تحضر الإسعاف؟" وإذا لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، وتسائل مرة أخرى: "هل من شهدوا؟" فتقديم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، فقال الآخر بلهجة ذات أثر لا يختلف عادة عن الأثر الذي يحدث عن جرس سيارته: "بل يجب نقله إلى مستشفى الدمرداش" وأندرك الضابط ما يعنيه ذلك على حين استطرد رجل الإسعاف قائلاً: "أعتقد أن الحالة خطيرة جداً". وعندهما أرقى الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، كانت طلائع الليل تزحف كالجبال، ثم التفت إلى مساعدته قائلاً: "إصابة خطيرة في الرئة اليسرى، تهدد القلب مباشرةً" ثم شهق شهقة خفيفة واستكئن، وكان الطبيب يراقبانه، فالتفت المدير نحو مساعدته وهو يقول أنتهي. وجاء ضابط النقطة والراجل ما يزال راقداً بكمال ملابسه، عدا فردة الحذاء المفقودة، فقال الضابط وهو يوميء إلى الفقيد: "وشهادة الشهود ليست في صالحه، ثم وهو يقترب من السرير: "أرجو أن تستدل على شخصيته" وشرع في عمله على حين بسط له الشاويش المرافق له ورقة فوق منضدة، وتأهّب بدوره لتسجيل المحضر، ودس الضابط يده برفق في جيب الجاكتة الداخلي فاستخرج حافظة نقود قديمة متوسطة الحجم ومضى يفتشها جيماً جيماً، روشتة للدكتور فوزي سليمان"، وألقى نظرة عابرة على أسماء الأدوية، ولكنه لاحظ وجود كتابة على ظهرها وجّرّه بصره عليها بلا إرادة فإذا بها "البيض والدهنيات ممنوع، ويستحسن تجنب المنتبهات كالشاي والقهوة والشيكولاتة" وابتسم الضابط ابتسامة باطنية، إذ أن تعليمات شبّهها صدرت إليه من طبيبه في نفس الشأن، وانتقل إلى الجيب الداخلي وما لبث أن قال في فتور: "ثلاثة قروش ونصف عملة معدنية" وتوالي التفتيش وتتابع الإملاء، منديل، سلسة مفاتيح، ساعة يد،